

# روايات تعليميات وجوديات

بم عنان ابن زريق

الاصطناع عليه لاسلوب الرواية التعليمية . وهي مرحلة تأليف النبي . عام ١٩٢٣ . وحديقة النبي . صدر عام ١٩٣٣ . والتي هي من مراحلها الاخيرة . .

جبران في النبي . متأمل اجتماعي ، حر ، يدعو الى العمل ، والحرية ، وهو في حديقة النبي ، متأمل كوني ، ووجودي ، مؤمن بالله ، وبالحبة ، والعود الابدي . . . التجربة الفكرية ، والادبية في الكتابين واضحة المعالم ، لا لبس فيها ، ولا غموض ؛ بل ان البذور الصوفية ، والكونية ، والوجودية التي لهذه التجربة ، نلمحها في النبي ، قبل حديقة النبي ؛ وهي نفسها نلمحها في رواياته ، وقصصه ، ومقالاته السابقة تصطرع في نفسه مع روافد لتيارات مختلفة اصطدم بها كالاحاد ، والمادية ، واهدار القيم . .

في النبي ، يقول في المحبة :

— اذا اشارت المحبة اليكم فاتبعوها ،

وان كانت مسالكها صعبة متحدرة ،

واذا ضمتكم بجناحيها ، فاطيعوها ،

وان جرحكم سيفها المستور بين ريشها ،

واذا خاطبتكم المحبة ، فصدقوها ،

وان عطل صوتها احلامكم وبددها كما يجعل الريح

الشمالية البستان قاعا صفصفا . — ( طبعة مصر . ص ٢١ )

ويقول فيه في العمل :

— اجل ، ان العمل هو الصورة الظاهرة للمحبة الكاملة ،

فاذا لم تقدر ان تشتغل بمحبة ، وكنت متضجرا

ملولا ، فلا جدر بك ان تترك عملك ، وتجلس على درجات

الهيكل تلتمس صدقة من العملة المشتغلين بفرح ، وطمأنينة

— ( نفس المصدر ، ص ٣٩ )

ويقول فيه في الصداقة :

— ان صديقك هو كفاية حاجتك ،

هو حقلك الذي تزرعه بالمحبة ، وتحصده بالشكر ،

هو مائدتك ، وموقدك .

لانك تأتي اليه جائعا ، وتسعى وراءه مستدفنا . —

( نفس المصدر ، ص ٧٣ )

وفي حديقة النبي ، يقول في الروحانية :

— انتم ارواح رغم انكم تتحركون داخل هذه الاجساد .

وكالزيت الذي ينير في الظلام انتم مشاعل رغم انها تنير

داخل مصابيح .

لو كنتم اجسادا فحسب لكان وقوفي امامكم ،

وحديثي اليكم فراغا عميقا ، او كما ينادي ميت امواتا .

ولكن ليس الامر هكذا ، كل ما لا يعتريه الفناء فيكم هو

حر في الليل ، والنهار . ولن يحبس او يقيد لان هذه هي

ارادة العلي ، انتم نسماته ، كالريح ما أسر القبض عليها ،

او تقييدها ، وانا ايضا نسمة من نسماته — ( طبعة مصر -

ص ٢٩ )

ويقول فيه ، في الله :

الرواية التعليمية نمط حديث في التأليف القصصي ، والذهني ؛ وتقوم على السرد ، والحوار ، وعرض الافكار . . السرد يدعم بناء الرواية ، وموضعها ؛ والحوار يوضح ملامح الشخصيات فيها ، واتجاهاتهم الفكرية ؛ والعرض مزيج من التقرير ، والانتقاد ، والتوجيه ؛ وقد اصطنع الرواية التعليمية اليوم كثيرون من رواد الادب الحديث ، امثال احمد شوقي في شيطان بنتاؤر ، وميخائيل نعيمة في مرداد ، وامين نخلة في ذات العماد ، وجبران خليل جبران في النبي ، وحديقة النبي ، وغيرهم ؛ واصطناعهم لها على هذا القدر دليل قوي على انها ، على اختلاف الوانها ، ومميزاتها عندهم ، نمط مستحب في ادبنا العربي الحديث ، يؤثره الادباء والمفكرون على غيره ، للتعبير عن افكارهم ، واميالهم في الوجود ، والحياة . .

والحديث في فنية هذا النمط من الفن الروائي طويل ، سواء الجانب الفني ، والاسلوبي فيه ، البناء ، والموضوع ، والحوار ، والاشخاص ؛ او الجانب الذهني ، وصوره التقريرية ، والانتقادية ومضمونه المتنوع ، والمتوخى ؛ وساقصر الحديث هنا على مثالين تطبيقيين فيهما ، هما روايتنا جبران خليل جبران الخالدتان ، النبي ، التي ترجع الى عام ١٩٢٣ ، وحديقة النبي ، التي ترجع الى عام ١٩٣٣ ؛ فأوضح شيئا من فنيتهما ، وعلى الخصوص بنائهما ؛ واعرض جانبا من جانبهما الذهني ، وبصورة خاصة المنحى الوجودي فيهما .

واذا حاولنا رسم خط بياني للتجربة الجبرانية ، او حاولنا ايضا تحديد منحنياتهما في حياة جبران خليل جبران ، في طريقه الى ذاته ، وشخصيته ، والتي وصل اليها بعد لاي ؛ لوجدنا انفسنا امام عناصر عدة من المؤثرات الداخلية ، والخارجية ، اثرت في هذه التجربة الادبية ، والفكرية الفذة ، فطبعها بطابع الاصاله ، والابداع ، منها البيئة ، والثقافة ، والطباع ، والظروف ، والموهبة . . ولعل اهم هذه العناصر الارث الثقافي العربي ، الذي كان يعيشه هذا الاديب الموهوب ، المبدع ؛ هذا الارث الخصب ، والنير الذي حملته من دراسته الاولى ، والتي كانت في لبنان ، او مطالعته ، وقراءته ، او اتصاله الادبي ، والفكري بالعالم العربي .

وقد عرف جبران ايضا من معين الثقافة الغربية الحديثة ، وفلسفتها ؛ فاستساغ منها ما استساغ ، ورفض ما رفض ؛ والمعروف عنه اعجابه بالفيلسوف الانساني نيتشه ، وتأثره به . لقد حاول تقمص شخصيته ، واعتناق افكاره ، فلم يفلح في ذلك ؛ فدللت مرحلة من مراحل تطوره الادبي ، والفكري على مجاراته في افكاره ، وتجربته ، حتى مرحلة تمرده ، وكفره بالقيم الانسانية ، مرحلة تأليفه كتبه العواصف ، والمواكب ، والمجنون ، والسابق ، والتي كان يكتب فيها بين عام ١٩١٤ ، وعام ١٩٢٠ ؛ كما دللت مرحلة اخرى ، على استقلاله عنه في كثير من المسائل الفكرية الكبرى ، مع

– يا ملاحى ، ويا اصدقائي ، كان من الخير ان نقل الكلام عن الله الذي لن نظفر بادراكه ، وان نكسر الكلام عن بعضنا البعض ، علنا نستطيع ان نفهم ذاتنا .. ولكن اود ان تعرفوا اننا انفس الله وعبيره ؛ نحن الله ، في ورقة الشجرة ، وفي الزهرة ، وحيانا كثيرة في الثمرة . – (المصدر – ص ٤٠)

ويقول فيه في النواد ، والطمأنينة :

– لسوف تعلون فوق اقوالكم بيد ان طريقكم سوف يبقى كما هو ابقاعا ، وعبرا ، ابقاعا للمجيبين ، والمجوبين ، وعبرا لاولئك الذين يودون ان يقضوا حياتهم في حديقة .. ولكنكم سوف تعلون فوق اقوالكم الى ذروة تسقط عليها اترية النجوم ، وستبسطون اياديكم حتى تمتلىء ، ثم تضطجعون ، وتنامون ، كما ينام طائر صغير ابيض ، في عشه الابيض ، ثم تحلمون بفدكم كما تحلم الزنابق البيضاء بالربيع – (نفس المصدر – ص ٤٤)

والحدب على المجتمع ، واشتراع المحبة بين الناس ؛ ثم الايمان بالله ، والحلم بيوم سلام ، ووثام .. كلها ظاهرة في هذه الامثلة ، وغيرها من كتابيه العظيمين ؛ انه روحي ، سوفي ، حلولي ؛ انه اجتماعي ، مؤمن ، حر ؛ انه محب للناس ، محب للعمل ، محب للتعالي ..

ولا مرأه ان ذلك كله نفحات انسانية ، مؤمنة ، حرة ؛ ولكن الانسانية هنا ، ليست انسانية مذهب ، او استنتاج ؛ وانما انسانية معاناة ، وتصوف .. ولقد كانت الملاحد الوجودية من ابرز روافدها ، سواء في الفكر ، او الشعور ، وهي التي عاشها جبران ، وبشر بها ..

في النبي ، يقول في العقل ، والهوى :

– ان العقل ، والهوى هما سكان النفس ، وشراعهما ، وهي سائرة في بحر العالم ، فاذا انكسر السكان ، او تمزق الشراع فان سفينة النفس لا تستطيع ان تتابع سيرها ، بل ترغم على ملاطمة الامواج يمئة ، ويسرة حتى تقذف بكم الى مكان امين تحفظون به في وسط البحر – (ص ٦٥) حيث الاعتراف بهذين الطيفين العزيزين ، على حد قوله ايضا ، (ص ٦٦) والاشادة بوظيفتهما في الحياة .. ولكن النظرة الحلولية ما تلبث عنده ان تصبغ فكره ، ولحوده ؛ فيقول :

– واذا جلستم في ظلال الحور الوارفة ، بين التلال الجميلة ، تشاطرون الحقول ، والمروج البعيدة سلاها ، وسكينتها ، وصفاءها ، فقولوا حينئذ في قلوبكم : ان الله يستريح في العقل ؛ وعندما تعصف العاصفة ، وتزعزع الرياح اصول الاشجار في الاحراج ، وتعلن الرعود والبروق عظيمة السماوات ، فقولوا حينئذ في اعماق قلوبكم متهيبين خاشعين : ان الله يتحرك في الاهواء .

وما دتم نسمة من روح الله ، وورقة في حرجه ، فانتم ايضا يجب ان تستريحوا في العقل ، وتتحركوا في الاهواء . – (ص ٦٦ – ٦٧)

وبحق ، ان الحلول عنده يترفده دوما وحدة وجود . الا ان ذلك كله ابتداء من الذات ، من التجربة ، من الحياة مع الاخرين ، ومن التعاطف مع الكون ، والعالم .. الامر الذي ظل يمدده بقبسات وجودية ، مشرقة ، هي وراء حس الحرية ، والتوق عنده ..

وفي حديقة النبي ، يقول في الزمن :

– خذ بين يديك الان حفنة من التراب . ما عسالك واجد فيها ؟ . احبة قمح ام دودة ارض ؟ .. لو ان راحة يدك مستطيلة العمر بما فيه الكفاية ، لاصبحت هذه الحبة غابة ، واصبحت هذه الحشرة سربا من الملائكة . ولكن لا يفربن عن بالك ان السنين التي تحول البذور الى غابات والحشرات الى ملائكة هي ابنة « اللحظة » ان السنين كلها هي « اللحظة . » – (المصدر – ص ٣١)

فالنظرة الكونية ، والمادية الى الزمن هنا ، يتجاذبها شعور بالتطور ، والعود الابدي ، والتجربة الانية ؛ ومن ذلك كله يخلص التأمل الى ترجيح التجربة الانية ، حتى غدا الزمن عنده لحظة ، او مجموعة لحظات ..

استمع اليه بلفته الشاعرية ، الرمزية ، يحاول تحديد المعرفة :

– ان النهار يهيك قوة المعرفة . ويعلم اصابعكم ان تحذق فن الاخذ . ولكن الليل هو الذي يقودكم الى خرافة الحياة .

من الشمس تتعلم جميع الاشياء التي تنمو كيف تشتاق الى الضوء . ولكن الليل وحده هو الذي يرفعها الى النجوم .

فسكون الليل هو الذي ينسج حجاب الزفاف فوق اشجار الغابة ، وفوق ازهار الحديقة ، ثم يقيم بعد ذلك حفلا ينفق فيه بسخاء ، وبعد حجرة الزواج . وفي خلال هذا الصمت المقدس يحمل بالغد في رحم الزمان . (حديقة النبي – ص ٢٨ – ٢٩)

حيث الثورة على المنطق ، والحدود ، والوضوح ، وحيث اثار المعاناة ، والتعالي ، والتعاطف ، وهي ايضا امشاج وجودية .. ومن هنا قوله بسبق الوجود على الماهية ايضا . وذلك اثر توضيحات كونية ، وتطورية في الحياة والعود الابدي :

– الان .. معنى ان اكون هو ان اكون حكيما بيد انني لن اكون حينئذ غريبا لدى الاحمق ، هو ان اكون قويا ولكن لا اكون عاطلا كالضعيف ، هو ان الهو مع الصغار لا كأب بل كرفيق يتعلم العابهم .

وهو ان اسلب ، واغش ، واخذع ، نعم ان اضلل ، واسقط في الشباك ثم يسخر مني الناس ، لكنني في هذا كله انظر باسم من قمة ذاتي الكبرى عالما ان ثمة ربيعا سيأتي الى حديقتي ، ليرقص في اوراقها ، وثمة خريفا سوف ينضج اعنابها .. (المصدر نفسه – ص ٤٥ – ٤٦)

ان انسانية جبران حقا انسانية المؤمن ، الصادق ، انسانية المحب للناس ، والداعي الى السلام ، والوثام .. وقد دعمها باساس متين من المعاناة الفردية ، والجماعية ، وعبر عنها في تناقضها ، وانسجامها ، بصدق ، وامانة ، وترفع ..

عدنان ابن ذريل

دمشق

طبعت على مطبع :

دار الفند للطباعة والنشر

هاتفون : ٢٢٢٩٢١